بنيةُ الخطاب الإعلامي وأبْعاده الدّلالية في القرآن الكريم

أ.د/ حسين يوسف خريوش(*)

يُعالج هذا البحث طبيعة الخطاب الإعلامي في القرآن الكريم، وكيفيّة فهمه، ويهدفُ إلى كشف ما وراء بنية هذا الخطاب، بأنه ليس مجرّد شكل للخطاب تقام فيه أنماط المشاعر أمامنا للتأمّل فيه؛ بل هو قوّة تُؤثر في مشاعرنا، وتُحرِّك فينا قُوى الإدراك لأبعاد واقع الكتاب؛ كي نَعيَهُ ونحذَرَهُ في آن واحد؛ ذلك أنَّ الكتب المقدسة نصَّت على حقيقة النبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم، قبل أن يُخلق، بما وَصَفَهُ الله تعالى في كُتبه المنزلة على أنبيائه. فالقرآن الكريم ـ إذن ـ يحمل إعجازاً إعلاميّاً قد جاء في الكتب المقدسة ـ التَّوراة والإنجيل ـ سجَّلَهُ الله في الأزل بصدق نُبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه الكريم.

ويعرض القسم الأخير من البحث تحليلاً لسورة المُلك "تبارك" على أساسٍ من تطبيق هذه الخطوات، وربط دلالات الآيات الكريمة في سياق تأويلي يتوافق مع بنية الخطاب الإعلامي في القرآن؛ أُصيبَ بترتيبه مِفصَل البلاغة ، حيث جيء به متناسقاً، فكان تقريراً لجهة التحدّي، ثمَّ أعقبَ عليه بالتأكيد على قُدرة الله تعالى؛ فكان شهادةً وتسجيلاً بكَماله.

(*) أستاذ الأدب العربي بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ـ جامعة اليرموك ـ إربد ـ الأردن.

غير أنَّ هذا المعنى، يُشير إلى شيءٍ غير قليل من الشَّفافية إلى العالم الخارجي الذي تُمثِّلُهُ السُّورة الكريمة؛ بمعنى أنَّ الآيات الكريمة فيها ليست أشياء جامدة، بل تحمل دلالاتٍ لأشياء، وتُشير بدقة إلى حقائق مُعيَّنةٍ في الوجود، أو إلى فكرة بذاتها. ويمكن أن نجد أوضح مثال لذلك في الآيات التي تُخاطب أهل الكتاب، وما فيها من إعجاز إعلامي، يبعث على التقريع والمعاندة، وتلك الآيات التي تحمل مضامين إعلامية تتجاوز فَهْمَ الإنسان وإدراكه.

إنَّ هذا الفهم، يعكس بالضرورة الإحساس الكامن لدى العلماء الأوائل، في إدراكهم لأبعاد الإعجاز القرآني؛ ذلك "أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلَّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن"[1].

فإن القرآن الكريم، لم يقتصر على سبيلٍ بعينه في اتجاهه الإعلامي؛ فالأنماط المختلفة ـ كما سيتضح ـ تتخذ اتجاهاتٍ "عاطفيةً"، وأخرى "عقلانيةً"، وإلى ذلك كله؛ فإنَّ البلاغ الإعلامي ينطوي على اتجاه نفساني، وهو الاتجاه المعروف بالترغيب والترهيب، فإنَّ "الاستمالة التي تنطوي على تهديد تجعل المتلَقي يقبل نتائج المخاطب ـ بكسر الطاء ـ إذا كان التوتر العاطفي الذي أثير خلال الإبلاغ شديداً، بحيث يُشكّل حافزاً، أو إذا تضمَّن هذا الإبلاغ تأكيداتٍ تخلق توقّعات لدى المخاطب ـ بفتح الطاء ـ بأنه يمكن تجنب الأخطار"[2].

وأياً كان الرأي في هذا الأمر، فالقول المعقول، يحفزنا على الإحاطة الشاملة بالمراد، ويوجب علينا أنماطاً فكريّة تتصل بالسلوك والشخصيّة والحالة، فخلاصة بحثنا ـ إذن ـ هي أنَّ المواضع الموازية للآيات الكريمة عظيمة الشأن؛ فإننا في تعقبنا لهذه الآيات من القرآن الكريم الذي نبحث فيه، كنَّا نأتي بآياتٍ توازي الآيات التي نحن بصددها، لكي نستعين بها على توكيد الموقف الذي نحن فيه.

ولكن هذه الحقيقة، وَقَعَت أوّل شيءٍ وآخره على "حقيقة التّوحيد"، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأنَّ الأفعال العظام التي تتحيَّر فيها الأفهام والأذهان ولا تكتَنِهُها هيّنة عليه هواناً لا يُوصل السَّامع إلى الوقوف عليه إلاَّ إجراء الرسالة ـ رسالة الإسلام ـ في مثل هذه الطريقة من الامتداد الزماني، كما أقرَّها كتاب الله العزيز، وحملها أنبياؤه إلى أمم الأرض على فترات من وجودهم. ولئن كان ثمَّة شيء لنا نحن أبناء هذا الزمان، لهو أنَّ وراء هذه المبادىء الربانية، بحثاً آخر في أثنائها لا يتمّ التناول ـ في رأيي ـ إلاَّ به ؛ فما أحسب أن "المنهج الإبراهيمي" في البحث عن الإله ، إلاَّ الشجرة المباركة التي تفرَّع عنها مناهج أصحاب الرسالات الثلاث من أنبياء الله، عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ ذلك أنَّ البيئة القرآنية بكلّ أبعادها العقلية والفكرية تُشكّل مقتضياتِ حياة الإنسان كلها؛ لأن "للقرآن معانٍ ومرامٍ إنسانية اجتماعية بعيدة الهدف أبدية العمر"[٣].

١ـ٢

وهذا الاتجاه في الإبلاغ بوحدانية الله تعالى، ينهج منهجاً عقلانياً يعتمد المحاجّة، ويعمل على إظهارها بأعمق أسبابها وتعلاّتها "من محاجّة نمروذ في الله وكفره به "، حتى نال منه الإعجاز والإفحام، فكان الإعجاز في الإبلاغ أقوى الحجج، ذلك أن الاعتراض على إبراهيم عليه السّلام كان عتيداً، ولكن وجه المحاجّة بينهما لم يتمّ، لأن إبراهيم لمّا سمع جوابه الأحمق، لم يحاجّه فيه، لأنه ليس له من الأسباب والظواهر ما يدفع به إلى القبول؛ "ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليَبْهَتَهُ أوّل شيء. وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادل من حجّةٍ إلى حجّةٍ "[٤]. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

ويَقْوى هذا المنهج في الاستدلال بالوقوف على معاينة الإحياء بما فيه من فوائد جليلة للعقل الإنساني، ذلك أنّ قصّة "العُزَيْر" أو "الخضر" المارّ ببيت المقدس حين خَرَّبَهُ بُخْتُنصَّر، بَعَثَتْ في نفسه الاستعظام لقدرة المُحْيي، فأراد أن يُعاين الإحياء كما طَلَبَهُ إبراهيم عليه السَّلام؛ لأن طِلْبَتَهُما واحدة، غير أنَّ المفارقة الكامنة بين الرؤيتين، محمولة على الاستعظام والكيفيّة معاً لكلَيْهما، إلاَّ أن " العُزَيْر " لمّا تَبين له ما أشكل عليه انتهى بالإقرار والإيمان القائمَيْن على علمٍ موصولٍ بقدرة الله تعالى. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦]، بينما تتخذ قصّة إبراهيم عليه السَّلام ، منحىً آخر مخالفاً يُثبت إيماناً مطلقاً؛ لأنه في الأصل أثبتُ الناس إيماناً وأدْركهم بوحدانية الله وعظيم قدرته " ليزيد سكونا وطمأنينةً بمضامّهِ علمَ الضرورة علمَ الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التَّشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلمَ الذي لا مجال فيه للتشكيك"[٧].

هذا إلى جانب موادّ الامتحان عند كليهما، فهي عند "العُزَيْر" تأخذ تطاولاً زمانياً امتدّ مائة عام وذلك من أعظم الآيات التي تُظهر القدرة على حفظ الأشياء من التغيّر، وأمَّا إبراهيم عليه السَّلام، فكانت الحركية للأطيار هي أساس الأمر كلّه في كيفيّة الإحياء، إذ كان السؤال الإبراهيمي في الأصل مصروفاً إلى الكيفيَّة التي لا يضرّ عدم تصوّرها ومشاهدتها بالإيمان. يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ

فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٨].

١-٢

وتُقابلنا هنا مسألتان أُخريان، أثارتهما المناظرات في حقيقة الله: مسألة الأحوال، ومسألة الصَّلب، والتثليث. غير أنَّ جوهر الإبلاغ في هذا كلِّه يكمن في مسألة "الخطيئة الأولى"، التي - في تصوّرهم - يحمل وزرها "بنو آدم" بسبب أكْل آدم عليه السلام من الشجرة التي نُهي عنها؛ وأن حوّاء تتحمّل مسؤولية هذه الخطيئة؛ فقد جاء في سفر التكوين أن سحر الجمال وقوّة تأثيره أوقع حواء في الخطيئة؛ لأن "الشجرة جيّدة للأكل وأنها بَهجَةٌ للعيون وأن الشجرة شهيَّة للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلتْ وأعطتْ رَجُلَها أيضاً معها فأكل، فانفتحَتْ أعْيُنُهُمَا وعَلِما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصَنَعَا لأنفسهما مآزر (...) فقال آدم: المرأة التي جَعَلْتَهَا معي هي أعطتني من الشجرة فأكلتُ"[٩].

أمَّا القرآن الكريم، فيحدّد الاتجاه الصَّحيح، كما نصَّت آياته الكريمة، أن الغواية الشيطانية أوْقَعَتْ آدم عليه السلام أولاً، من منظور تعلّقه عليه السلام بحقيقة "الخُلد والملك" اللذين لا يبْليان؛ فالأناجيل كما نرى تعارض القرآن في هذه الجدلية التي يَضْعُفُ المخلوق تحت تأثيرها؛ فالبلاغ القرآني - كما نرى - يُقوّي النزوع العقلاني في الشقّ الثاني من الجدلية، بأن الشيطان أوقع آدم أولاً: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[١٠]. فالوسوسة والوِسْواس، هما حديث النفس والهمس والأفكار، وهما سابقان للزَّلل في الخطيئة كما نرى في قول الله عزّ وجل: (﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[١١].

فالوسوسة الشيطانية استبقَ بها آدمُ حوّاء ، ولكنهما اشتركا في الأكل من الشجرة، والزّلل والإبعاد عن الجنة والإخراج منها. "ولا شك أن تبرئة القرآن المرأة، على هذا النحو، يرفع عنها لعنةً، لحقتها عبر القرون، ويرفع عنها سُبَّة الضَّعف المطلق، والانهيار السَّريع أمام الغواية، ولا يخفى أثر هذا الاتجاه على وضْعها في المجتمع"[١٢].

٢ـ٢

غير أن الإقرار بصلب المسيح عليه السَّلام، ممَّا انتشر في الأناجيل، وأكَّدَتْهُ إصحاحاتها؛ فقد جاء في إصحاح يوحنا (٣ :١٦) "لأنه هكذا أحبَّ اللهُ العالم حتى بَذَلَ ابْنَهُ الوحيدَ لكي لا يهْلِكَ كلُّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.(١٧) لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليَدين العالم، بل ليخلص به العالم". وهذه المسألة يُعارضها القرآن الكريم؛ لأنهم لا يقووون على قتل رسول الله عليه السّلام؛ "لأنه قَطْعٌ على المحال وإحالة طبيعة، وإحالة الطبائع لا تدخل في الممكن إلاّ أن يأتي بذلك يقينٌ عن الله عزّ وجل فيلزم قبوله"[١٣]، واليقين الربَّاني أنهم لم يقتلوا ﴿الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُم﴾[١٤]. "والسؤال الصَّحيح وحقُّ الجواب أنه لم يلزم الناس قطّ قبل ورود القرآن فرضٌ بشيءٍ من ذلك، لا بإقرار ولا بإنكار، وإنما كان خبراً لا يقطع العذر ولا يوجبُ العلم الضروري"[١٥]؛ لأنهم في شكٍّ منه، ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظنّ، كما هو في نصّ الإنجيل (متّى٢٦ : ٤٨) من أن يهوذا الإسخريوطي[١٦]، الذي أسْلَمَهُ إليهم وأعطاهم العلامة بقتله، يشهد أن اليهود لم تكن تعرفه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[١٧].

فاليهود إنما قَتَلَتْ رجلاً لم تُعيّنه ـ بإقرار كُتبهم ـ ولم تَعْرفه إلاّ بشهادة يهوذا الإسخريوطي. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[١٨]. وما ذلك إلاّ دليل الشَّبه، ورفْع عيسى عليه السلام ؛ ذلك أنَّ "مَوْتَ الأنفس محالٌ أن يكون، إ لاّ بمشيئة الله تعالى، فأخرجه مخرج فعلٍ لا ينبغي لأحدٍ أن يقدم عليه إلاّ أن يأذن الله له فيه"[١٩]، فإنَّ من الأسباب الكامنة وراء ذلك، أنَّ الله تبارك وتعالى "خلق الموت والحياة" وأنهما لا يكونان إلاّ بإذنه، وأنَّ أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله؛ أي أن الله تعالى يختبرهم "بما يجب فيه الصَّبْر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلى الله مرجعهم ، فيجازيهم على حسب ما يوجد منهم من الصَّبر أو الشكر، وإنما سمَّى ذلك ابتلاءً وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار"[٢٠].

وأيّاً كان الرأي في هذا، فالقول الفصل يَنْهانَا أنْ نُقَيِّدَ معنىً من معاني الآيات القرآنية الكريمة تحت أية كيفيّة؛ لأن ما سوى ذلك، فهو تخمين؛ إذ كيف يُهْرَقُ دم المسيح عليه السَّلام "في مرضات جميع ولد آدم، إذا كان الذَّنبُ باقياً في أعناق جميعهم"؟.

نعم، إنَّ تضحية عيسى عليه السَّلام، لا حدّ لها، ولكنها لا تستقيم أمام محاجّة عقل ابن آدم نفسه، الذي "فداه بدمه"؛ لأن الإنسان الفرد لا يزرُ وزْرَ الجمع من الخلق؛ لأن مسئولية الدّين كما يُحدّدها النص القرآني، لا يشركها غير الفرد نفسه، فهي "شخصيَّة محضة"؛ فالآيات في هذا بالغة اليقين، يقول الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٢١]. ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[٢٢]. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾[٢٣].

والجانب الأهم في هذه المسألة ـ كما هو بادٍ ـ أنهم على إصرارهم على الصَّلب، لا يُقرّون بغفران الله سبحانه لآدم خطيئته، فيخالفون بذلك ما عليه الرحمن من واسع الرحمة والغفران؛ لأنه لما لم يكن في الحكمة الأزلية، أن لا ينتقم الله من عبده العاصي

آدم الذي ظَلَمَهُ، واستهان بقَدَره، ولم يُرد الله الانتقام منه؛ لاعتلاء منزلة السيِّد وسقوط منزلة العبد"[٢٤]؛ فإنَّ الله سبحانه لم يغفر لآدم خطيئته، حتى يتأصل الاعتقاد في أن "القتل والصَّلب" كانا يحملان فلسفة التكفير والتخليص، وفي هذا مجانبة لإرادة الله تعالى، ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[٢٥].

٣ـ٢

أمَّا المسألة الأخرى "التثليث" فَمُثقَلَةٌ بكثير من الموادّ، ومخصَّصةٌ في الواقع لأفعال اليهود والنصارى معاً، وللعدالة والأوامر الإلهية؛ ذلك أنَّ في النَّصارى مَنْ يؤمن بأن حقيقة الله هو المسيح لا غير، ومذاهبهم تؤدي إليه، "حيث اعتقدوا أنَّه يخلق ويُحْيي ويُميت ويُدبِّرُ أمر العالم"[٢٦].

والإعلام القرآني في هذه المسألة يؤكد عبوديّة المسيح وأمّه كسائر العباد، وأنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية، وأنه تعالى (يخلق ما يشاء) ولا أحد (يملك من الله شيئاً)؛ فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المُجري على يده، فالخلق هم على الاختصاص بالعبودية والإفناء، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٧].

والغريب هو أنّا لا نجد عند هؤلاء شيئاً يعادل ذلك "الحكم الأزلي" الذي يُتيح للعقل الإنساني أن يصل بين الأحكام الإلهية والأحكام الطبيعية المتمثلة بالمسيح عليه السلام نفسه؛ لأنه لا يأتي باستجابات تؤيد أهواءهم؛ فإنَّه ليس في الوجود إله قطّ إلاّ إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له، وهو اللهُ وحده لا شريك له؛ فالإعلام بمسألة الصَّلب أخرجها الله عن كلّ استجابة محتملة؛ لأن المسيح عليه السلام تجاوز الصلب والتثليث معاً.

ولقد غدَت "قصة التثليث" جزءاً متمّماً للمعتقد المسيحي، إذ أُقِرَّ أن المسيح عليه السلام هو أقنوم الابن في الله ذي الثلاثة أقانيم. فقد نُسب إلى المسيح عليه السلام في إنجيل (متّى٢٨: ١٩) حيث قال لتلاميذه : "فاذهبوا وتلْمِذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القُدس"[٢٨]. والإبلاغ في هذا عن الله سبحانه، ينفي عن المسيح هذا الإشراك في الألوهية بوجهٍ من الوجوه، إذ صرَّح بكثير من القطع ببُعْدِه هو وأُمُّه عمَّا نُسب إليهما في قوله "كانا يأكلان الطعام"؛ (لأن مَنْ احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلاَّ جسماً مركباً من عظمٍ ولحمٍ وعروقٍ وأعصابٍ وأخلاطٍ وأمزجةٍ مع شهوةٍ وقَرَمٍ[٢٩] ، وغير ذلك مما يدلُّ على أنه مصنوع مؤلّف مُدبَّر كغيره من الأجسام)[٣٠]. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٣١]. فإنهم بتعظيمهم عيسى عليه السلام، يجترئون على الخالق تبارك وتعالى، ويستخفّون بحقه؛ فإنَّ الله خلق عيسى وأمَّه آيةً للناس ، عبداً ورسولاً، وهي صدّيقة مباركة، وكانا يأكلان الطعام[٣٢].

١-٣

ما زال البحث ـ كما نرى ـ لم يغادر حقيقة التّوحيد، فقد وَضُحَت هذه المسألة على نحو دقيق، بل بلغ الأمر إلى الإبلاغ الشديد لمن يجترح على الله تعالى.

غير أنَّ هناك أيضاً موافقات أخرى تثير الدهشة حول بثّ الحقائق والتأكيد على أصول نُبوَّة محمّد صلى الله عليه وسلَّم؛ لأن حقائق رسالته وما خصّه الله تعالى به من العلم، لو وُضعت على الجبال لذابت، إلاَّ أنه كان يُظهرها لهم على مقاديرهم"[٣٣]؛ لأن

الله تعالى قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[٣٤]. وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣٥].

ولهذا كان الإبلاغ القرآني يؤكد إثبات أن محمّداً رسول الله، يتلقّى الوحي من السماء، من خلال طبيعة إعلامية عامة للناس جميعاً ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾[٣٦] و ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٣٧].

فالخطاب في الآيات كلها يُثبت أن محمّداً صلى الله عليه وسلّم، "الرسول الحق" الدّاعي إلى الإيمان والتوحيد إلى كافة الإنس وكافة الجنّ، وأن القرآن الذي هو أداته الإعجازية، لا يختلف ولا يتناقض ولا يتفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فهو قوّة بيانية بالغة حدّ الإعجاز، فائتةٌ لقوى البلغاء؛ "لأنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عالمٌ بما لا يعلمه أحدٌ سواه"[٣٨].

ولقد كانت هذه النبوّة مسجلةً في ضمير الغيب، وأنّ الاستجابة لها قد تحقّقت لإبراهيم عليه السلام. وهذه الدلائل يُرجّحها أن موسى وعيسى يُقْرَنانِ بإبراهيم كثيراً في الذكر؛ فالحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه يقول: "إني عبد الله وخاتم النبيّين، وأبي آدم منجدلٌ في طينته، وأخبركم عن ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أُمّي التي رأت ـ الحديث"[٣٩]. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤٠]. وقوله تعالى إجابة لموسى عليه السلام ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[٤١]، وقال تعالى على لسان عيسى عليه السّلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٤٢].

وتتأكد هذه النبوّة لدى أهل الكتاب أنفسهم بحيث (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) "بحليته ونَعْته الثابت في الكتابَيْن معرفة خالصة، وهذا استشهاد لأهل مكّة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته"[٤٣]؛ إلا أن الخسران حاق بهم؛ لأنهم "كذبوا على الله بما لا حجّة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجّة البيّنة والبرهان الصحيح، وذهبوا فكذّبوا القرآن والمعجزات، وسمّوها سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم"[٤٤]. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٤٥].

٢-٣

ولقد جاء البيان باكتمال حلقة الإسلام للأديان كلّها، في الإصحاح السادس عشر (إنجيل يوحنّا) الفقرة الثانية عشرة، فيما لعيسى من "أمور كثيرة" لا يمكنه البَوْح بها لهم؛ لأنهم (لا يستطيعون أن يحتملوها الآن)، ويُكمل قوله في الفقرة الثالثة عشرة: (وأمّا متى جاء ذاك الروح الحقّ؛ فهو يُرشدكم إلى جميع الحقّ؛ لأنه لا يتكلّم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأُمور آتية. (الفقرة١٤) ذاك يُمجّدني؛ لأنه يأخذُ مماً لي ويخبركم. (الفقرة١٥) كلُّ ما للآب هو لي. لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم. (الفقرة١٦) بعد قليلٍ لا تبصرونني . ثمّ بعد قليلٍ أيضاً ترونني؛ لأنّي ذاهب إلى الآب).

إن الشهادة التي تدلّل عليها تلك الإصحاحات ، هي شهادة محمد صلّى الله عليه وسلّم لعيسى عليه السلام بالنبوّة، (وأمْر المسلمين بالإيمان به كرسول من عند الله، كما تقدمّت الإشارة إلى ذلك). أمّا جوهر الإعلام والإخبار اللذين لم يستطيعوا احتمالهما الآن، وسيرشد إليهما "الروح الحق" "محمد"، بما يوحى إليه من ربّه؛ فإنهما يمكن الإشارة إليهما بالحقيقتين الآتيتين:

أولاهما: تتصل ببني إسرائيل أنفسهم، وهي تتجسّد بما سيؤولون إليه من سوء المصير والمنقلب؛ فضلاً عن أنهم "لا يحتملون تلك الشريعة الأبدية من عيسى عليه السلام؛ لأن التطور البشري لا يسمح لهم أن يتلقّوها؛ ولأنهم يحتاجون بعد إلى تربية تمتدّ أمداً ليصلحوا لتلقي آخر الشرائع، شريعة محمد صلى الله عليه وسلّم الخالدة، ولكن عندما تصل البشرية إلى النضوج العقلي، وإلى تفتّح ديني مناسب، يُرسل الله إليها خاتم الرسل بخاتمة الشرائع، وهذا ما كان عندما أرسل الله تعالى محمّداً صلى الله عليه وسلم"[٤٦].

والثانية: موصولة بعيسى عليه السلام، من حيث الإشهار والتمجيد، بأنّه خُصّ بإطلاق كلمة التكوين عليه، فإنّه لما فَقَدَ حقيقة الأشياء التكوينية الطبيعية التي في البشر، أُضيف هذا التكوين إلى كلمة الله تعالى، وأُطلقت الكلمة على المكوِّن إيذاناً بذلك؛ أو جُعل كأنه الكلمة نفسها مبالغة. ﴿إِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٤٧].

غير أنَّ التمجيد الأسمى لعيسى عليه السَّلام كما يؤكدّه الإبلاغ الإلهي؛ ما رُمي به عيسى وأمُّه، أي رَمْيها بما ليس فيها، وهو التَّزنية "يُسمّونه السَّاحر بن السَّاحرة، والفاعل ابن الفاعلة" روي أن رهطاً من اليهود سبُّوه وسبّوا أمَّه، فدعا عليهم: "اللهم أنت ربّي وبكلمتك خلقتني، اللهم الْعَنْ مَنْ سبَّني وسبَّ والدتي" فمسخ الله مَنْ سبّهما قردةً وخنازير؛ فأجمعت اليهود على قتله؛ فأخبره الله بأنّه يرفعه إلى السّماء ويُطهّره من صحبة اليهود"[٤٨]. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾[٤٩].

١ـ٤

فالخطاب الإلهي بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم، يُوضح السّبيل إلى " ملّة إبراهيم حنيفاً" ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[٥٠]. فالمحاجّة في إبراهيم عليه السّلام لا تستند إلى "التّوحيد"؛ لأن اليهودية إنما حَدَثت بعد نزول التّوراة، والنّصرانية بعد نزول الإنجيل "وبين إبراهيم وموسى ألف سنةٍ، وبينه وبين عيسى ألفان؛ فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلاّ بعد عهده بأزمنةٍ متطاولة؟؟"[٥١]. فهم إنما يجادلون في المحال؛ لأن جدلهم "مما نَطَقَ به التوراة والإنجيل"، وفي الإنجيل أن عيسى عليه السّلام قال لليهود ـ بعد حوار طويلٍ وكلامٍ كثيرٍ مذكور بينه وبينهم في ذلك المجلس ـ (يوحنا: ٨: ٤٢) حين قالوا له: "إنما أبونا إبراهيم". قال: "إنْ كنتم بني إبراهيم، فاقفوا أثره، ولا تريدوا قتلي، على أني رجلٌ أدّيْتُ إليكم الحقَّ الذي سمعتُه من الله. غير أنكم تقْفون أثر آبائكم"[٥٢].

أما تماديهم في الاستغراق في هذه الناحية ومحاجّتهم "فيما ليس لهم به علم" ولا ذكر له في كتابَيْهم من دين إبراهيم، فذلك نقصٌ في تكوينهم؛ لأن إبراهيم عليه السّلام، ليس من دينهم في شيء؛ لأنه لم يكن إلاّ (حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)، فالحنيفية ليست إلاّ الأصل الذي أوتيه محمد صلّى الله عليه وسلّم خصوصاً؛ فهو أولى الناس بإبراهيم وأخصّهم به وأقربهم منه "والذين آمنوا" من أمّته!!. ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلاّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥٣].

وفي الإنجيل ليوحنّا (٧: ٢٨) ، أن عيسى عليه السّلام، أعلن صَوْته في البيت،

وقال لليهود: قد عرفتموني في موضعي، ولم آت من ذاتي، ولكن بَعَثَني الحقُّ، وأنتم لستم تعرفونه، فها هو ذا جعل نفسه وموضعَهُ معلومَيْن عند اليهود، وجعل الله عندهم مجهولاً، وقال: إنه لم يأتِ من ذاته، ولكن الله تعالى قد بَعَثَهُ، فما زاد في دعواه شيئاً على ما ادّعاه غيرهُ من الأنبياء عليهم السَّلام.

غير أنَّ البرهان الواضح على صحّة نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يُجسّده "القصص الحق"، في سياق آيات التَّوحيد ، بخلق عيسى وآدم معاً في أصل الخلق والتكوين، ذلك أنّ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٥٤]، ذلك أنهم غَلَوْا غُلوّاً كبيراً؛ فأراد اللهُ لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم (من بَعْد ما جاءك من العلم)، أن يدعوهم "إلى المباهلة"، وهي الالتعان بالإهلاك والدمار "وأصل الابتهال هذا، ثمّ استعمل في كلّ دعاء يُجتَهَدُ فيه وإنْ لم يكن التعاناً"[٥٥]؛ ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام، دعاهم إلى المباهلة على الكاذب منه ومنهم. "فلمّا تخالَوْا قالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم : يا عبد المسيح، ما ترى؟. فقال: "والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيٌّ مُرسل، وقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قومٌ نبيّاً قطّ فعاش كبيرهم، ولا نَبَتَ صغيرهم؛ ولئن فعلتم لتهلكُنَّ..."[٥٦]، إلى غير ذلك من التأويلات، ليوهموا أنَّ لتلك البشائع أسراراً وأصولاً ثابتة في الحقائق؛ لأنَّ العامة ـ الجاهلين بإدراك الحقائق ـ تقف في الأعم الأغلب ضدّ هذه الظواهر الحقَّة، وتدعو إلى التمسك بما عليه الآباء، ولو كان ضلالاً ، وتلك ظاهرة قابلت الأنبياء جميعا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٥٧]؛ "وإلاّ فلِمَ لمْ يجيبوه حينئذٍ ويتباهلوا، ولا يحترقون كما أوْعدهم، فيكون في ذلك عليه ما لا يخفى؟"[٥٨]، ولكنهم، جزعوا لذلك، وأبَوْا عليه، فأوعدهم عليه الصلاة والسلام لو باهلوا باضطرام ذلك الوادي ناراً

عليهم، فتخوّفوا نقمة الله تعالى حين يُظهر كرامته عليهم وجاهَهُ لديه؛ فكان أن صالحهم النبيُّ صلى الله عليه وسلّم. فهذا هو ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥٩].

١ـ٥

وهكذا فقد كان غرضي الوحيد في هذا البحث أن أُطابق حقيقة التَّوحيد، كما أظهرها البلاغ القرآني ـ على نحوٍ مما هو مسموح به ـ؛ ولذلك يمكننا القول، بأنَّ أهل الكتاب ـ في القرآن الكريم ـ كانوا يشكّلون ثنائيةً خاصةً تتصل الواحدة منهما بالأخرى اتصالاً موثقاً في كثيرٍ من الأحيان، حتى إنهما كانتا تتخذان اسمين اثنين للمعبود في مصدر التوراة والإنجيل، وتتنافران إلى حدّ التضادّ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[٦٠]. وظل هذا الإحساس بالبغضاء يلازمهم؛ إلى أن عصوا الله في محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، حسداً وتمادياً في الجحود، وكفراً بآيات الله تعالى؛ ذلك "أن الأحبار عندما أعادوا كتابة نصّ التّوراة إلى الصورة التي هي عليها الآن، قد نسبوا الكثير جداً إلى موسى. وقيل عن التشريعات وأحكام الطقوس التي تخصّ بلا شك العصور اللاّحقة أنها قوانين موسوية؛ والهدف من ذلك واضح، وهو الإعلاء من سلطتها"[٦١]؛ وهذا ما أكّده البلاغ القرآني في أكثر من آية؛ وهذه التغييرات والانحرافات، كانت تُمليها حاجاتهم وميولهم، وهي التي طمست مَعالم اليهودية واستوجبت قيام المسيحية ثم الإسلام أخيرا لينسخ الديانتين بسبب طمس الأحبار لمعالم الدّين الحقّ فيهما "[٦٢]، ولا شكّ أن هذا "التراث المتغيّر"، عمل على انزواء فكرة "التوحيد" وإبعادها؛ إذ لم تَضْعُفْ هذه الروايات "المحرَّفة"، فهي بَدَلَ أن تضعف وتتآكل بمرور الوقت، "ازدادت قوّةً على مرّ القرون، وشقّت طريقها إلى تشريعات الروايات الرسمية اللاّحقة، وأخيرا دلّلت على قوّتها بشكل حاسم بحيث أثّرت في فكر

الناس ونشاطهم"[٦٣]، وقيل في المسيح عليه السّلام قولان عظيمان: أحدهما: ما قالت اليهود. والثاني: ما قالته النصارى؛ وهو ما حاول هذا البحث أن يوضّحه من خلال البلاغ القرآني المعجز لحقيقة التوحيد.

وبعد،

فإنه يمكن لهذا البحث أن تُختم حلقاته، بتناول "سورة الملك" ، غير أنَّ هذا التناول، ليس إقحاماً لمناهج التفسير، أو اتكاءً على آراء المجتهدين، وإنما هو استكمال تطبيقي لبنية الخطاب الإعلامي في القرآن من منظور إعجازي؛ يستند إلى دلالة التسمية في هذه السُّورة الكريمة؛ لأن "الملك" من مقتضيات فكرة البحث الأساسية القائمة على "التّوحيد" الذي "هو أصل الأصول، ومنه انبثق الكون والمخلوقات والعقل، وهو أصل العلوم والمعارف"[٦٤].

فالذي "بيده الملك" هو الله تعالى الذي لا تجوز عليه الأضداد سبحانه؛ أمّا طبيعة الخلق، فقد فطرها الله تعالى وفيها تتقابل الأضداد مثل" الموت والحياة" و "النور والظلام"؛ والعلم والإحاطة بأحد هذه الأضداد هو علمٌ بالآخَر، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[٦٥] و﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّور إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾[٦٦] و﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور﴾[٦٧]. فالإحاطة "بالملك" والاستيلاء عليه، هو تعبير عن الذات الإلهية في الوحدانية والقدرة، وفي هذا الإحكام في الخلق من الناس والمخلوقات. وقد جعل الله تعالى هذا الإحكام في الخلق شاهداً له بالكمال، مسبّحاً بحمده جلّ شأنه. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُور * ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[٦٨].

ثمَّ تُعبّر الآيات عن كمال الله تعالى، عندما تحاور جهنَّمُ وخَزَنَتُها (الذين كفروا بربّهم)، وتجادلهم في استكبارهم، وسوء اختيارهم "خلاف ما اختار اللهُ وأمَرَ به وأوْعَدَ على ضدّه"؛ ذلك أنَّ هذا الاستغراق لمصير كلّ مَنْ كَفَرَ بالله من الشياطين وغيرهم، يُجسّد الحقّ والعدل معاً، ويظهر أن الأحكام الشرعية تُستفاد من العقل كما تُستفاد من السَّمع؛ أيّ أنّ العقل يُجسّد مراشد العقيدة الصَّحيحة، والسَّمع يختصّ بأحكام الشريعة[٦٩]. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[٧٠].

غير أنَّ النقطة الأساسية في هذا السياق، هي علم الله الأزلي، الذي يعلم السِّرَّ والجهر، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور؛ فإنَّ إسرار هؤلاء أو إجهارهم، في علم الله بهما سواء، **(إنه عليمٌ بذات الصُّدور)**؛ فهو مَنْ خلق الأشياء **(وهو اللطيف الخبير)** "المتوصّل علمه إلى ما ظهر من خَلْقه وما بطن"[٧١]، فالاستدلال على ثبوت العلم له عزَّ وجل يكون بثبوت الخلق، فإنه "يعلم كيف يخلق وكيف يُدبِّر العجائب". ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[٧٢] فالمفارقة بين الألفاظ في هذه الآية الكريمة، "صافَّاتٍ" "ويقبضن". و"يمسكهنَّ"، تنكشف عنها عجائب لغوية، فهذه الاستخدامات "للحالية"، و"الفعلية" تُظهر بدائع الإعجاز اللغوي؛ فلو اتَّسقت خصائص هذه الألفاظ في بنية اشتقاقية متماثلة، لَما تحقَّق الأصل في خصائص الطير، في الصفّ والقبض، ولكنه تعالى أعطى الاشتقاق في اللغة، خصائص الأصل في الطيران. ولقد أحسن الزمخشري في هذا كل الإحسان عندما لاحظ ذلك.

ويلحق بهذا الموقف الإعجازي ويُناجزه، موقف إعجازي آخر، استظهره الزمخشري بثاقب الذهن من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٧٣]؛ وذلك أن استظهار المحاجة بين المؤمنين وكفار مكة فيما كانوا يطلبونه من إهلاك المؤمنين استعجالاً للفوز والسَّعادة، اقتضى من الله تعالى؛ أن يُعجز هؤلاء، ويُظهر إعجازه هو، بأن يَحْتَضِنَ أهل الإيمان برحمته ويختَصَّهم بالتوكل عليه، فقدَّمَ مفعول التَّوكل، وأخَّرَ مفعول الإيمان "الرحمن آمنّا به"[٧٤] "وعليه توكّلنا"، "لوقوع آمنَّا تعريضاً بالكافرين، حين وَرَدَ عقيب ذكرهم؛ كأنَّه قيل: آمنَّا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا، خصوصاً لم نتَّكل على ما أنتم متُكلون عليه من رجالكم وأموالكم"[٧٥].

الهوامش:

(١) الصناعتين ، لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمّد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، سنة ١٩٧١م، ص٧.

(٢) الأسس العلمية لنظريات الإعلام، د. جيهان أحمد رشتي، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي بالقاهرة، سنة ١٩٧٨م، ص ٤٦٥.

(٣) رسالة "التفسير" للأستاذ أمين الخولي، وهو بحث مستخرج من ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٣.

(٤) الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، تحقيق محمّد عبد السّلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج١/٣٠١.

(٥) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

(٦) الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

(٧) الكشاف: ١/٣٠٥.

(٨) الآيتان ٢٥٩، ٢٦٠ من سورة البقرة.

(٩) سفر التكوين : ٣: ٦-١٢.

(١٠) الآيتان ١٢٠، ١٢١ من سورة طه.

(١١) الآية ٣٦ من سورة البقرة.

(١٢) انظر: بين الإسلام والمسيحية، كتاب أبي عبيدة الخزرجي، تحقيق محمد شامة، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٥م، ص ٧٤.

(١٣) الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل، لابن حزم، المطبعة الأدبية بمصر، سنة ١٣١٧هـ، ج١/٦٠.

(١٤) الآية ١٥٧ من سورة النساء.

(١٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١/٦١.

(١٦) ذلك أن يهوذا الأسخريوطي – وهو من الحواريين تلاميذ المسيح، ارتد عنهم بزعمهم ـ قال لهم: إني لأسْتحي منه، فسوف أجعل الأمارة عليه، لأنكم لا تعرفونه بعينه، أن أقبَلَهُ ، فإذا فعلت فأنتم وذاك. (بين الإسلام والمسيحية: ص١٩٢).

(١٧) الآية ١٥٧ من سورة النساء.

(١٨) الآيتان ١٥٧، ١٥٨ من سورة النساء.

(١٩) بين الإسلام والمسيحية : ص ١٩٩.

(٢٠) الكشّاف : ٣/١١٣.

(٢١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٢٢) الآية ١١١ من سورة النساء.

(٢٣) الآية ١٩ من سورة الأحقاف.

(٢٤) بين الإسلام والمسيحية : ص ٨٦.
(٢٥) الآية ١٢٢ من سورة طه.
(٢٦) الكشاف : ١/٦٠٥.
(٢٧) الآية ١٧ من سورة المائدة.
(٢٨) انظر في هذا شرحاً وافياً في حاشية: بين الإسلام والمسيحية للدكتور محمّد شامة: ص ٦٩.
(٢٩) القَرَم بالتحريك: شدّة شهوة اللحم.
(٣٠) الكشاف: ١/١٥١.
(٣١) الآيات ٧٣ ـ ٧٥ من سورة المائدة.
(٣٢) أكْل الطعام هنا، كناية عن التغوّط، وقد كان الله تعالى لو سَبَقَ في حكمه أن يكون إنساناً وينزل لمقابلة عباده، أن يمتنع عن التغوّط، إذ هو دنيَّةٌ ابتلى بها آدم وبنيه مُبيِّنةٌ لنقصهم واحتقارهم، وهو تعالى المختصّ بالكمال، والموصوف بالعظمة والجلال، فلا يليق به تلك الدَّنية. (انظر بين الإسلام والمسيحية: ص ١٥٨).
(٣٣) كتاب اللمع، لأبي نصر السرَّاج الطوسي، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص ١٥٩.
(٣٤) الآية ١٩ من سورة محمد.
(٣٥) الآية ١١٤ من سورة طه.
(٣٦) الآية ١٧٠ من سورة النساء.
(٣٧) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.
(٣٨) الكشاف: ١/٥٢٩.
(٣٩) أخرجه أحمد والبزار وابن حبان، والطبراني والحاكم من حديث العرباض بن سارية. (انظر : حاشية الكشاف : ١/١٨٧رقم ٢).
(٤٠) الآية ١٢٩ من سورة البقرة.
(٤١) الآيتان ١٥٦، ١٥٧ من سورة الأعراف.
(٤٢) الآية ٦ من سورة الصف.
(٤٣) الكشاف : ٢/١١.
(٤٤) المصدر نفسه.
(٤٥) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة الأنعام.
(٤٦) محمّد في الكتب المقدسة، د. محمد روّاس قلعه جي، دار السَّلام، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٣.
(٤٧) الآية ٤٥ من سورة آل عمران.
(٤٨) الكشاف: ١/٥٧٤.
(٤٩) الآيتان ١٥٦، ١٥٧ من سورة النساء.
(٥٠) الآية ١٣٠ من سورة البقرة.

(٥١) الكشاف: ٣٦٤/١.
(٥٢) بين الإسلام والمسيحية : ص ١٦٣.
(٥٣) الآيات ٦٥ ـ ٦٨ من سورة آل عمران.
(٥٤) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.
(٥٥) الكشاف : ٣٦١/١.
(٥٦) المصدر نفسه.
(٥٧) الآية ١٠٤ من سورة المائدة.
(٥٨) بين الإسلام والمسيحية : ص ١٧٢-١٧٣.
(٥٩) الآية ٦٢ من سورة آل عمران.
(٦٠) الآية ١١٢ من سورة آل عمران.
(٦١) موسى والتَّوحيد، سيجموند فرويد، ترجمة الدكتور عبد المنعم الحفني، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٨م، مطبعة الدار المصرية، ص ١٣٨.
(٦٢) موسى والتَّوحيد، ص ١٤٤، حاشية رقم "١".
(٦٣) المصدر السَّابق: ص ١٤٥.
(٦٤) انظر: أنوار (ألف، لام، ميم)، د. جبري مصطفى محمد، وصدقي حجازي، عمَّان، سنة ١٩٨٥م، ص ١٦.
(٦٥) الآية ٢ من سورة الملك.
(٦٦) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.
(٦٧) الآية ١ من سورة إبراهيم.
(٦٨) الآيات ١ ـ ٤ من سورة الملك.
(٦٩) الكشاف: ٥٦٦/٤ (حاشية رقم ٣).
(٧٠) الآيات ٦ ـ ١١ من سورة الملك.
(٧١) المصدر السَّابق: ٥٦٧/٤.
(٧٢) الآية ١٩ من سورة الملك.
(٧٣) الآية ٢٩ من سورة الملك.
(٧٤) جاء في "الرَّحمن"، من المبالغة ما ليس في "الرَّحيم". ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إنَّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى. (الكشاف: ١١٦/١).
(٧٥) الكشاف : ٥٧١/٤.